الفصل الثالث
العلاقة ما بين الطبيعتين

أولا: ابن الله وابن الإنسان

1- يسوع المسيح ابن الله

إن لقب "ابن الله" هو من أهم الألقاب المنسوبة للمسيح، فهو اسم يسترعى الكثير من الانتباه لكرامة المسيح وخاصة من جهة ألوهيته التي تدل على أنه مؤهل تماما للتحدث عن أمور الله. إنه ذلك الجانب من طبيعته الذي حاز إعجاب نثنائيل عندما أدرك مندهشا بأن المسيح له إلمام بماضيه المستور، لذلك هتف قائلا: "يا معلم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل" (يوحنا1: 49). أما المعارضة لطبيعة المسيح الإلهية والاشمئزاز منها فقد اتضحت جليا في محاولة التشكيك التي أجراها إبليس عندما تحدَّى المسيح قائلا: "إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا" و"إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل (أي من جناح الهيكل العلوي)" (متى4: 3و 6). هذا حدث أيضا عند إخراج المسيح للشياطين الذين صرخوا عند خروجهم قائلين: "ما لنا ولك يا يسوع ابن الله؟ أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا؟" (متى8: 29). أما تعليق المسيح عن القصد من موت لعازر وإقامته له من الموت فكان "لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به" (يوحنا11: 4). ويتضح هذا أيضا من اعتراف التلميذ بطرس عن المسيح في قوله له: "أنت هو المسيح ابن الله الحي" (متى16: 16) نتيجة لإدراكه لألوهية المسيح. وصرَّح البشير يوحنا أيضا بأن القصد من كتابته لبشارته إنما كان: "لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه" (يوحنا20: 31).

يجب أن نفهم هذين التعبيرين "الآب" و "الابن" على أساس وجهة نظر المفهوم العبري في الكتاب المقدس بأن "الآب" و"الابن" هما نظيران متطابقان ومتساويان في الطبيعة والكيان، ففي كل مرة يدعو فيها الكتاب المقدس المسيح بلقب "ابن الله" يكون

القصد هو التشديد على حقيقة وأصالة ألوهيته. إنه ذو الطبيعة نفسها التي للآب تماما، كما أن الأب البشري تكون طبيعة ابنه طبيعة بشرية مطابقة لطبيعته؛ فالمسيح ابن الله هو مثل أبيه في جوهر طبيعته الإلهية، تلك الطبيعة التي لا يشارك فيها الله أي مخلوق. الآب والابن والروح القدس هم واحد معا في جوهرهم وطبيعتهم وأزليتهم، وهم متساوون في القدرة والمجد، كانوا ولازالوا موجودين في أقانيمهم الثلاثة المميزة. وعلينا أن نتذكر بأن الاسمين "الآب" و"الابن" ليسا بالضرورة كافيين للتعبير الكامل والتام عن العلاقة التي تربط الأقنومين الأول والثاني في الثالوث، ومع ذلك يبقى هذان الاسمان أفضل ما لدينا، نحن البشر، للتعبير عن هذه العلاقة. وعلاوة على ذلك فإنهما يعبران لنا في الكتاب المقدس، ليس فقط عن وحدتهما في الجوهر والطبيعة، بل أيضا عن علاقة الود والمحبة المتبادلة بينهما. المسيح يسوع هو ابن الله الأزلي أما نحن فنصير أولاد الله المتبنين بالنعمة. المسيح هو ابن الله بحقه الأزلي الخاص، أما نحن فبالتبني نصبح أولادا لله عندما نُولَد من جديد وتصبح الحياة الجديدة في المسيح من نصيبنا، أي عندما يُحسَب لنا بره وطهارته. وصيرورتنا أولادا لله لا تعني بأن تكون لنا الألوهية التي للمسيح، لكنها تعني بأننا قد عُدنا إلى مشابهة أخلاقية وروحية أكمل من تلك التي كانت لنا عند الخليقة والتي تشوهت وتحطمت ونُقضت معالمها بواسطة الخطية. الله هو أبو الرب يسوع المسيح بمعنى خاص يختلف كل الاختلاف عن كونه أبا المؤمنين به. صحيح أن يسوع تحدث لتلاميذه عن الله كأبيهم الذي في السموات، لكنه في الوقت نفسه أظهر بذلك أن أبوة الله لهم هي بمعنى محدود ومقيَّد، وليس بالمعنى غير المحدود الذي يرتبط هو فيه بأبوة الآب؛ فبنوَّتهم لله هي نتيجة ارتباطهم بالمسيح الذي هو الابن الحقيقي الكامل لله. وأوضح المسيح ذلك في قوله لتلاميذه: "الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت" (يوحنا16: 27). هذا ما عبَّر عنه البشير يوحنا حين قال: "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد لله، أي المؤمنين باسمه" (يوحنا1: 12).

لا يتفق الكتاب المقدس مع النظرية الشائعة بين البعض والذين تشربوا الفلسفة الدهرية صاحبة النظرية التي تدَّعى بأن الجميع هم إخوة. حسب تعليم الكتاب المقدس لا تُبنَى البنوَّة على تلك العلاقة التي نتجت عن كون الله هو خالق البشر أجمعين، إنما هي

مبنية على العلاقة الروحية التي يحصل بواسطتها البشر على الخليقة الجديدة في المسيح. وكخليقة جديدة يصبح المؤمنون أولادا لله بإيمانهم بالمسيح. إن الله هو أب الجميع كخالق الجميع بمعنى كونه مصدر حياتهم، لكن أولاده الحقيقيين بين البشر هم الذين "وُلِدوا من فوق" (يوحنا3: 3). "إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة" (2كورنثوس5: 17). "لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله" (رومية8: 14). كل المسيحيين الحقيقيين هم "أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع" (غلاطية3: 26)، "فإن كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة" (غلاطية3: 29).

خارج دائرة التبني بواسطة المسيح كلمة "أب" معناها سطحي جدا، لأنه في المسيح وحده نقدر أن نعرف الله بالحقيقة: "وليس أحد يعرف الابن إلا الآب.... ومن أراد الابن أن يُعلن له" (متى11: 27). أما أولئك الذين يبقون في خطيتهم وسقوطهم، دون تجديد روح الله، فهم ليسوا أولادا لله حسب مفهوم كلمة الله، بل هم أولاد إبليس، لأنهم كإبليس وشركاء له في طبيعته الشريرة، لأنهم "بالطبيعة أبناء الغضب" (أفسس2: 3). قال يسوع لمقاوميه: "أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تفعلوا" (يوحنا8: 44)، "أنا أتكلم بما رأيت عند أبي وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم.... لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من قِبَل الله وأتيت" (يوحنا8: 38 ،42).

هذا ما علَّمه أيضا الرسول بولس، عندما قال للساحر: "أيها الممتلئ كل غش وكل خبث، يا ابن إبليس، يا عدو كل بر، ألا تزال تفسد سبل الله المستقيمة؟" (أعمال الرسل13: 10). وعندما نؤمن بالمسيح نصير أولادا لله لأنه "سبق فعيَّننا للتبني بيسوع المسيح لنفسه" (أفسس1: 5)، أما المسيح فهو ابن الله بكل ما للتعبير من معنى، إذ أنه قال عن نفسه: "أنا والآب واحد" (يوحنا10: 30)، و"الذي رآني فقد رأى الآب" (يوحنا14: 9), و"من لا يكرم الابن لا يكرم الآب" (يوحنا5: 23). أما بولس فقد قال عنه: "صورة الله غير المنظور" (كولوسي1: 15) و"إن الله كان في المسيح مصالحا العالم لنفسه" (2كورنثوس5: 19), و"فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا" (الرسالة إلى كولوسي2: 9). أما كاتب الرسالة إلى العبرانيين فقد قال بأن المسيح هو بالنسبة لله:

"بهاء مجده ورسم جوهره" (عبرانيين1: 3). إضافة إلى كل ذلك فإن عظات السيد المسيح التي نجدها في العهد الجديد إنما تدل دلالة قاطعة على إحساسه ووعيه الدائم بألوهيته لأنه كان يدرك إدراكا منقطع النظير بالنوعية الخاصة لعلاقته بالله الآب، وكذلك كان الله الآب مدركا كل الإدراك ببنوَّة المسيح يسوع الفريدة.

إن معنى المساواة لله والوحدة معه كان واضحا في اللقبين "الآب" و"الابن"، ويبدو جليًّا من جواب المسيح لليهود عندما شفى يسوع أحدهم في يوم السبت، إذ قال: "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل"، ونتج عن كلامه هذا ما يلي: "كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه لأنه لم ينقض السبت فقط بل قال أيضا أن الله أبوه معادلا نفسه بالله" (يوحنا5: 17و 18). بعد ذلك حاولوا قتله رجما بالحجارة قائلين له: "لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلها" (يوحنا10: 33). والقول بأن المسيح هو ابن الله، كان محور تهمة رئيس الكهنة له، تلك التهمة التي أدت لإصدار مجلس السبعين (السنهدريم) الحكم بالموت على المسيح (راجع متى26: 63 – 66). وقتئذ قال اليهود لزعمائهم: "لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله" (يوحنا 19: 7). أما يسوع فلم ينكر تلك التهمة قط، بل على العكس اعترف علانية بصحة قولهم. وقد علق على موضوعنا هذا أحد كبار علماء التفسير قائلا: "كما أنه (أي المسيح) أخذ عن أمه مريم الطبيعة البشرية، هكذا أخذ عن أبيه السماوي الطبيعة الإلهية، وهو أمر متميز ومختلف عن ناسوته.

إن الكتاب المقدس يشير إلى المسيح باسمين داعيا إياه أحيانا بـ"ابن الإنسان" فلا يمكن إلا وأن تُفهم على أساس أنه نموذج ما يجب أن يكون عليه الإنسان. هذا هو ما يوحي إليه الأصل العبري لـ "ابن الإنسان" والذي يشير إلى أنه ذرية آدم. كذلك فإن تسمية المسيح بـ"ابن الله" تشير إلى ألوهيته وكيانه الأزليين؛ فمن البديهي أن يشير كونه "ابن الله" إلى طبيعته الإلهية تماما كما يشير كونه "ابن الإنسان" إلى طبيعته البشرية (مبادئ الديانة المسيحية – الفصل الأول ص442).

إذن يتضح لنا بأن لقب "ابن الله" كان المقصود منه إبراز المسيح في طبيعته الجوهرية كإله، فالذي "صار من نسل داود بحسب الجسد" هو أيضا نفسه الذي قيل عنه: "تعيَّن ابن الله بقوة" (رومية1: 3و 4). ذاك الذي، بحسب الجسد، أتى من نسل عبراني هو أيضا: "الكائن على الكل إلها مباركا إلى الأبد" (رومية9: 5). نتيجة لذلك علينا أن نؤمن بالابن كما نؤمن بالآب، وأن نكرم الواحد كما نكرم الآخر.

2- يسوع المسيح ابن الإنسان

استعمل يسوع لقب "ابن الإنسان" مرارا كثيرة عندما أشار إلى نفسه، ويبدو أن هذا اللقب كان مفضَّلا لديه. وعبارة "ابن الإنسان" كانت موضع الكثير من الدراسات والنقاش عبر التاريخ المسيحي، والمعنى الحقيقي والرئيسي الذي ينطوي عليه لقب "ابن الإنسان" هو أن يسوع كان إنسانا بكل معنى الكلمة. إنه الإنسان المثالي الكامل. نرى في المسيح الطبيعة البشرية في كمالها، دون تشويه ولا تلوث، وهو الأنموذج والمثال الذي بواسطته يُنَسِّق البشر حياتهم. وبما أن للمسيح طبيعة بشرية فهو ذو علاقة حيوية بجميع أعضاء الجنس البشري، وبناء على تدبير الله، له الحق في تمثيلهم جميعا أمام الحضرة الإلهية.

ويلاحظ أن المزمور الثامن يستعمل هذا اللقب إشارة إلى البشر عامة فيقول: "من هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده؟" (مزمور8: 4)، لكن العهد الجديد إذ ينسبه للمسيح فإنه يعطي الاصطلاح مدلولات تفوق البشر؛ ففي سفر دانيآل ومن ضمن النبوءة عن عودة المسيح إلى السماء يَرد في كلمة الله: "وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه. فأُعطِيَ سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض (دانيآل7: 13و 14). هذا ما فهمه اليهود بدون تردد على أساس كونه إشارة لهويَّة المسيا المنتظر. وأشار المسيح نفسه إلى تلك النبوة وهو على يقين تام من انطباقها عليه فقال: "وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السما. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتيا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير. فيرسل ملائكته ببوق

عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح، من أقصاء السماوات إلى أقصائها" (متى24: 30و 31 – راجع أيضا لوقا 21: 27).

تُنتَقى الأسماء عادة بقصد إبراز ملامح فريدة معينة، كإطلاق لقب على إنسان ما بقصد إظهار خلاصة شخصيته؛ فيقال عن فلان "الطيِّب القلب" وعن آخر "النبيل" وغيرها من الألقاب. واللقب هنا دل على شخصية صاحبه وأعطى فكرة عن نوعيته؛ فالناس لا يسمَّوْن تبعا لملامح مشتركة مع غيرهم، بل تبعا لتلك الملامح الخاصة التي تميِّزهم عن أندادهم من البشر. بالنسبة للمسيح فإنه منذ الأزل تميَّز بالألوهية التي شارك فيها الآب والروح القدس؛ فهو شريك لكل من أقنومَيْ اللاهوت الآخرَيْن في ميزات حضورهما في كل مكان وأزليتهما وعلمهما المطلق بكل شيء. أما موضوع التجسد فكان مختصا به، وبه وحده. تلك هي ميزته الخاصة في نطاق اللاهوت. من هنا لم يكن مدهشا أن يكون لقب "ابن الإنسان" قد أوجِد وطبِّق على الزائر المتوقع للأرض ولساكنيها.

إضافة إلى ذلك يجب ملاحظة أن لقب "ابن الإنسان" استُعمل من قِبل يسوع عندما تحدث عن مجيئه وذهابه وعودته بالنسبة لوجوده على الأرض؛ فقد جاء في الإنجيل حسب متى24: 44 و25: 31 و 26: 24 ما يلي:
".. لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان".
"ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه".
"إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه".
كما جاء في الإنجيل حسب لوقا19: 10، "لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك". وكذلك في الإنجيل حسب يوحنا6: 62 "فإن رأيتم ابن الإنسان صاعدا إلى حيث كان أولا".

لقد دُعِيَ لقب "ابن الإنسان" على نحو ملائم جدا "لقبًا انتقاليا" ليس فقط لما يعنيه ذلك من تكاتف المسيح مع الجنس البشري تكاتفا تاما لدى تجسده، بل أيضا لما في ذلك من إشارة لأصله الأسمى قبل التجسد.

ثانيا: انسجام الطبيعتين

لعل أهم وأخطر الانحرافات العقائدية في تاريخ المسيحية هو ما يتعلق بتشويش العلاقة القائمة ما بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية. والواقع أن تلك الانحرافات تركزت بصورة خاصة في الإخلال بالتوازن القائم ما بين هاتين الطبيعتين، وذلك بتفضيل إحداهما على الأخرى أو إعطاء الواحدة مكانة ما، بها تفقد الأخرى نصيبها أو دورها في اتزان البناء القائم في شخصية يسوع المسيح. لكن تلك الانحرافات كثيرا ما ارتكزت على إساءة فهم فقرة أو أخرى من متضمنات الوحي الإلهي. وإساءة الفهم هذه طالما وجدت مسبباتها في استخلاص عبارات واردة في الكتاب المقدس وتفريغها من قرائنها النصية الواردة فيها وتجاهل مواقعها ضمن مجمل ما ورد في سجلات الوحي الإلهي المعينة التي حَوَتْها، خصوصا وأن سجلات الوحي الإلهي تشتمل على عبارات فيها تشديد على طبيعة المسيح الإلهية، وأخَر فيها تشديد على طبيعته البشرية، إلى جانب تلك التي تجمع ما بين خواص الطبيعتين. من هنا كانت إمكانيات إساءة الفهم، لأن البعض بنوا استنتاجاتهم على أساس الافتراض بأن المسيح كان إلهًا فقط وفتشوا على ما يؤكد مزاعمهم هذه بين طيَّات الوحي الإلهي. والبعض أكدوا على أنه مجرد إنسان، وسَعَوا إلى إثبات ذلك من خلال نصوص الوحي الإلهي في تلك العبارات التي تركز على جانب الطبيعة البشرية فيه. وهكذا ظهرت البدعة تلو الأخرى وكلها تشير إلى خطإٍ فادح أساسي ألا وهو عدم التمسك بالهيكل الكامل للحقيقة.

إن الواقع التاريخي يشهد ليسوع المسيح الإله والإنسان؛ فيسوع تمتع بقدرات فاقت جدا معطيات الطبيعة البشرية، لكن من جهة أخرى فإن طبيعته البشرية طابقت تماما تلك التي تمتع بها معاصروه من البشر. ومع أنه يصعب علينا – بل ولا يجوز لنا أن نحاول – الفصل المطلق بين العناصر الطبيعية وفوق الطبيعية في شخص المسيح، فإن دلائل التمييز ما بين الطبيعتين البشرية والإلهية الكامنة وراء كل من تلك الدلائل والبراهين التاريخية المتعلقة بطبيعتي السيد المسيح هي اثنان: العهد الجديد والمعتقدات العلنية الراسخة عند المؤمنين الأوائل الذين عاصروه. كان أمرا بديهيا للذين اهتدوا للإنجيل

وآمنوا بالمسيح أن يؤمنوا به على أنه الله المتجسد؛ فهذا الأمر لم يكن في حاجة إلى إثبات، بالرغم من تنوع الدلائل التي تشير إلى ذلك بانسجام مطلق. وهذه الدلائل لن تترك لأحد مجالا للشك في صدقها واستقامتها، فهل كان ممكنا ليسوع المسيح أن يتمتع بطبيعتيه بانسجام كامل؟ تلك لم تكن القضية، بل كان ذلك أمرا مفروغا منه إذ لم يكن من داع للبحث عن دلائل عليه، فالذين عاصروه وعايشوه بالذات هم الذين استخدمهم الله في تدوين ما أوحى به عن هذا الأمر لأجيال المؤمنين اللاحقة من بني البشر، إذ سجَّلوا شهاداتهم عنه: "الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا.... قد رأينا ونشهد ونخبركم... ونكتب إليكم هذا...." (رسالة يوحنا الأولى1: 1 – 4).

في التجسد أضاف الرب إلى طبيعته الإلهية نوعية أخرى، هي الطبيعة البشرية (الأمر الذي من شأنه تكوين شخصية مزدوجة). لم تكن الإضافة بمعنى وجود شخصية إضافية، بل بمعنى إضافة نوعية بشرية إلى الطبيعة اللاهوتية؛ ففي الوقت الذي لم يتخل فيه عن طبيعته الإلهية لم يتخذ لنفسه شخصية جديدة، بل أخذ لنفسه جميع الجوانب البشرية الاعتيادية التي يتمتع بها البشر، أي أنه إلى جانب كونه إلها، أصبح إنسانا أيضا. هذا كان في طبيعتين متميزتين، ولكنه كما كان منذ الأزل، بقي هو ذاته شخصا واحدا.

من المؤكد أن هذا الأمر يتضمن ما يمكن تسميته لغزا لا يمكن استيعابه بشكل كامل، لكن طبيعة ذلك اللغز ليست غريبة على اختبارنا نحن البشر، فذلك اللغز بالذات كامن في طبيعتنا البشرية نحن أيضا. إن الإنسان يحتوي على جوهرين مختلفين في الأساس، فهو من جهة روح أو نفس غير مادية، خاضعة لتأثيرات فكرية وروحية، ومن الجهة الأخرى هو جسد مادي خاضع لكل العوامل والقوى الفيزيائية والكيميائية والكهربائية التي تعمل في العالم من حوله. هذان الجانبان في الطبيعة البشرية لم يُصهرا ولم يختلطا ولم تكن نتيجتهما هيكلا ثالثا دعي بالإنسان، بل إن هذين الجانبين بقيا قائمين أحدهما إلى جانب الآخر في انسجام كامل، كما بقيت خواص كل منهما متميزة في الإنسان ذاته، وظل كل منهما خاضعا لشرائع دائرته بكل دقة كما لو أنه كان منفصلا انفصالا كاملا عن الآخر. ومع ذلك، عند الإشارة إلى أي من هذه الخواص الإنسانية إنما تكون الإشارة إلى شخصه

بالذات. فلا تقول جسد فلان عمل كذا أو نفس فلان قالت أو فكرت كذا، بل تقول فلان عمل وفكر وقال كذا وكذا.

هكذا الأمر بالنسبة لطبيعتي المسيح، فمع أنهما متميزتان إحداهما عن الأخرى فإن ما يُنسب لإحداهما إنما ينسب لشخص المسيح ككل. من هنا كانت ضرورة الحذر من السقوط في إساءة فهم تلك التعبيرات الإنجيلية التي تبدو وكأنها متناقضة في وصفها للمسيح؛ فمنها ما يشير إلى كون المسيح شخصًا غير محدود، وهي – إذا ما تعمقنا في قرينة ورودها – تشير إلى طبيعته الإلهية، ومنها ما يشير إلى محدوديته، وهي تلك التي ترد في قرينة الحديث عن طبيعته البشرية. فهو إذن محدود كإنسان ولكنه غير محدود كالله، وهو ذو بداية كإنسان عند ولادته في بيت لحم، ولكنه أيضا هو الله الموجود أزلا. وهو كان على علم بكل شيء وفي نفس الوقت كانت طبيعته البشرية محدودة المعرفة. فهو من جهة تركيب طبيعته "من نسل داود حسب الجسد" كما يقول الكتاب المقدس، لكن الكتاب المقدس يقول أيضا بأنه "تعيَّن (أي تبرهن) ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات" (رسالة رومية1: 3و 4). خلاصة الأمر هي أن الكتاب المقدس يقدمه على أساس أنه "ابن داود"، وفي نفس الوقت هو "الأزلي قديم الأيام". ابن مريم هو، وفي نفس الوقت هو "إله فوق الجميع، مبارك إلى الأبد". هو الشخص الذي شعر بالإرهاق أثناء رحلاته الصعبة مشيا على الأقدام، وهو في نفس الوقت من يقول عنه الوحي الإلهي "حامل كل الأشياء بكلمة قدرته"، وهو الذي "جاع أخيرا" بعد أربعين يوما من الصوم، وفي نفس الوقت هو نفس الشخص الذي أشبع الآلاف وقال عن نفسه: "أنا هو خبز الحياة.... أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.... " (يوحنا6: 48 – 51). هو الذي قال إنه لا يقدر أن يعمل شيئا بدون الآب، وفي نفس الوقت هو الذي "بغيره لم يكن شيء مما كان". إنه "عظم من عظامنا ولحم من لحمنا"، ومع ذلك تمتع بمساواة مطلقة مع الله. هو الذي أخذ على نفسه "صورة عبد" وهو نفسه الذي تمتع بكونه "صورة الله". قال الوحي الإلهي عنه إنه "ينمو في القامة"، كما قال عنه إنه "هو هو أمسا واليوم وإلى الأبد". أيضا قال الوحي عنه "يتقدم في الحكمة"، ومع ذلك فقد عرف كل شيء عرفه الله. قيل عنه

"مولود تحت الناموس (الشريعة)" لكنه قال عن نفسه إنه "رب السبت وأعظم من الهيكل". إن نفسه حزنت واضطربت وهو "رئيس (أو مصدر) السلام". هو الذي سار إلى الموت تحت إمرة الحاكم الروماني، كما أنه هو الذي دُعي "ملك الملوك ورب الأرباب"، وهو الذي قال عن ذلك الموت: "أضع نفسي لآخذها أيضا... ليس أحد يأخذها مني (أي يقتلني) بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضا" (راجع يوحنا10: 17و 18). لقد صعد إلى السماء وغاب عن تلاميذه وكنيسته لكنه هو نفس الشخص الذي قال: "حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم"، وقال لتلاميذه قبل الصعود بأنه سيكون معهم "إلى انقضاء الدهر".

إذن الوحي الإلهي يقدم المسيح لنا أحيانا كإله وأحيانا كإنسان لكي نفهمه ونعرفه ونؤمن به كشخص واحد في طبيعتين، كإله وكإنسان، وليس لكي يعطينا الخيار ما بين واحدة من طبيعتيه هاتين. إنه الله المتجسد الذي كانت حياته الأرضية تعبيرا عن أنه جاء إلى عالم البشر وكشف عن نفسه ووضع الأساليب التي يمكن للبشر استيعابها، بصيرورته إنسانا مثلهم. وهكذا فإن طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية اتحدتا لدرجة بحيث أن الصفات أو الخواص المنسوبة لأي منهما نسبت إلى شخصية الواحد ككل، فسواء دعوناه يسوع أو المسيح، ابن الله أو ابن الإنسان، فإننا نقصد الإشارة إلى نفس الشخص. عندما نقول بأن يسوع عطش فإننا نعني أنه كشخص كامل في ألوهيته وناسوته قد عطش وليس جسده فقط. وعندما نقول إنه تألم نقصد بتألمه كشخص وليس كمجرد جسد، وهو إذ أخذ مكان الإنسان على الصليب ومات عنه، فإنه لم يعمل ذلك كإنسان فقط، بل إننا نعني أيضا بأن الله في المسيح أخذ مكان الإنسان على الصليب ومات لأجلنا نحن البشر. كل ذلك يعبِّر عن الحقيقة، لكن وجب علينا بالطبع أن نبقي نصب أعيننا حقيقة فرادة شخصه التي مكَّنته من إنجاز ذلك العمل الخلاصي المجيد.

لعل أهم ما يواجهنا به الوحي الإلهي من تعبيرات في شأن انسجام طبيعتي المسيح، هو ما نسب إليه من أعمال وقُوَى وصفات تنطبق على الطبيعتين، في إشارة جليَّة إلى المسيح الواحد. هذه التعبيرات التي تنطبق على طبيعتيه لا يمكن فهمها أو تفسيرها إلا من

منطلق كون هاتين الطبيعتين متحدتين عضويا، بشكل غير قابل للفصم أو الانحلال في شخص واحد هو الإله الإنسان. فالوحي الإلهي الطاهر يقول عن أعداء المسيح: "صلبوا رب المجد" (كورنثوس الأولى2: 8)، ويشير إلى كنيسته بالقول: "التي اقتناها بدمه" (أعمال الرسل20: 28). ويقول: "يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح" (تيموثاوس الأولى2: 5). إن العبارة "مريم والدة الإله"، التي يستعملها بعض المسيحيين، تعكس شيئا من الحقيقة، إذ أن المولود منها كان ابن الله، لكننا في نفس الوقت يجب أن نتذكر بأن مريم كانت والدة المسيح من جهة طبيعته البشرية فقط. لقد كان من الضروري لفادي البشر أن يكون إلهًا وإنسانا معا؛ فمن جهة كونه إنسانا هو من أجل أن يأخذ محل الإنسان فيتألم ويموت لأجله، فلو كان مجرد إله لما أمكنه عمل ذلك. وضرورة كونه إلهًا هي لإعطاء القيمة والمدى غير المحدودين المتطلبين في الذبيحة الصالحة للتكفير عن خطايا البشر. من ناحية ثانية، لو كان المسيح مجرد إنسان لما كان بإمكانه الموت حتى عن شخص واحد. خلاصة الأمر إذن أن طبيعته البشرية جعلت تألمه وموته ممكنين، بينما طبيعته الإلهية جعلت لهذين العنصرين (الألم والموت) القيمة والمدى غير المحدودين والصالحين لتمثيل عدد لا يحصى من الخطاة. هذا ما طرحه بوضوح بالغ يوحنا كالفن القائد الشهير للإصلاح الإنجيلي عندما قال: "لكي يمكن للإنسان أن يتصالح مع الله فقد كان لزاما عليه – وهو الذي دمر نفسه بمعصيته – أن ينفذ مطاليب العدالة الإلهية بتحمل عقاب خطيته، غير أن الله في رحمته، إذ أدرك استحالة ذلك على الإنسان، فإنه كشف عن نفسه في المسيح كإنسان حقيقي وأخذ لنفسه صفة آدم الثاني، ممثلا بنفسه بني البشر وجاعلا من نفسه بديلا عنهم في إطاعة شريعة الله، واضعا جسده بنفسه ثمنا للوفاء بمطاليب العدالة الإلهية، وهكذا تحمل بنفسه القصاص، المتوجب على عصياننا جميعا، في طبيعة إنسانية معادلة لطبيعتنا، التي فيها ارتكبنا ذنب العصيان. وبما أنه كان من غير الممكن للطبيعة الإلهية الروحية الموت فإنه أضاف إلى طبيعته الإلهية طبيعة بشرية صالحة لذلك".

المسيح إذن في تجسده وحَّد مع نفسه طبيعة بشرية وليس شخصا آخر، أما شخصيته فبقيت واحدة موحدة متجانسة ومتناسقة دون تشويش أو اختلال.

ثالثا: وظائف المسيح الثلاث

إن الانسجام الكامل في طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية الذي تعرضنا له سابقا، له موقع مركزي وحيوي فيما خص تحقيق جميع المقاصد الإلهية المتعلقة بعالم البشر، وليس فيما خص عملية الخلاص وحدها. لكن تنفيذ عملية الخلاص جزء لا يتجزأ من مجمل تلك المقاصد. صحيح أن فداء بني البشر هو المحور الأساسي الذي ترتكز عليه مجموعة مخططات الله – وهذا طبيعي – لأن سقوط بني البشر، بسبب عصيانهم لشريعة الله، هو المحك الذي أوجب، ليس فقط عملية التجسد والخلاص، بل أيضا جميع التأثيرات الفرعية التي لزم أن يخطط الله لاستئصالها أو إصلاحها أو إعادة بنائها. أما تحقيق المسيح لجميع هذه المقاصد الأزلية، وعلى رأسها فداء البشر، فقد جرى ضمن نطاق وظائف أو أدوار ثلاثة، إذ توجب عليه أن يكون نبيا وكاهنا وملكا.

1- المسيح النبي

إن وظيفة المسيح النبوية كانت ضمن الخواص المميزة للمسيا الذي تنبأت عنه أسفار العهد القديم. والواقع أن النبوة الواردة بهذا الشأن كانت إحدى النبوات الواردة في الوحي الإلهي عن مجيء المسيح، وقد جاءت على لسان النبي موسى: "يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك، من إخوتك مثلي. له تسمعون" (سفر التثنية18: 15). أما في العهد الجديد فقد أشار الرسول بطرس ضمن إحدى مواعظه العامة مشيرا إلى هذه النبوة وطبَّقها على المسيح: "موسى قال للآباء إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم. له تسمعون في كل ما يكلمكم به" (أعمال الرسال3: 22).

إن وظيفة النبي في الكتاب المقدس تختص بأولئك الذين تكلموا للبشر بالنيابة عن الله. من الطبيعي أن يكون المسيح ذا مكانة خاصة ضمن دائرة أنبياء الله. والواقع أن هذا أمر حيوي بالنسبة لمهمة المسيح التي جاء إلى عالم البشر لتنفيذها. إن العديد من الأنبياء الحقيقيين كانوا قد سبقوا مجيء المسيح وجميعهم تكلموا بكلام الله للشعب، لكن

ما أوحى الله لهم به كان ذا طبيعة تمهيدية وغير مكتملة. لقد كانوا جميعا يرمزون للمسيح النبي الأعظم الذي كانوا قد أتوا من أجل التمهيد لمجيئه.

يعتقد البعض بأن الله أرسل مزيدا من الأنبياء الواحد تلو الآخر، لعدم نجاح الأنبياء السابقين في إتمام مهماتهم أو لسبب حاجة الناس لمن يذكِّرهم بما سبق وأوحى به للأنبياء الذين أتوا في أجيال سابقة. لكن ذلك ليس مفهوم الكتاب المقدس. إن أنبياء الله لم يفشلوا، ولا واحد منهم، في تحقيق ما أراد الله تحقيقه عن طريقهم. أما سبب تعدد الأنبياء وتوالي قدومهم من قِبَل الله في حقبة العهد القديم، فمرجعه أن لكل منهم دوره في التمهيد لمجيء المسيح. من المهم للغاية أن ندرك هذه الحقيقة لأنها تعكس علينا إدراكا صائبا لكون الوحي الإلهي، عبْر أنبيائه، لا يعتريه تناقض أو نقصان بحيث أن الله يسعى لإصلاح ما تهدم بإرسال مزيد من الأنبياء. الله لا يسمح بأي فشل في تأدية أنبيائه لمهمتهم، ولا بأي تشويش يؤثر على ما ينقلونه عنه للبشر الآخرين. لذلك لا يجوز لنا الاعتقاد بأي شيء من هذا القبيل، إلا إذا كنا نعتقد بأن الله غير جدِّي فيما يعمل، أو أنه غير قادر على إنجاز ما يريد عمله، وهو تفكير خاطئ وغير صحيح عنه تعالى؛ فالله وهو كلي السيادة، أعطى عصمة خاصة لأنبيائه حين دوَّنوا الوحي كاملا بدون خطإٍ، وهو في نفس الوقت، بحكمته وسلطانه، عمل على حماية ما دوَّنوه، من التحريف أو الفقدان، عبر الأجيال.

لقد أدَّى كل من هؤلاء الأنبياء دوره بكل أمانة وجدارة، مدعومين بقوة الله، في التحضير التدريجي لمجيء المسيح؛ فلو أن الله كشف عن كل شيء دفعة واحدة، لما كان من الممكن لبني البشر استيعابه. من هنا كانت ضرورة الطبيعة التدريجية والتقدمية للوحي الإلهي، كما أن ذلك هو السر الحقيقي وراء ذلك الترابط والتكامل بين أدوار الأنبياء المعكوس في أسفار الكتاب المقدس. إن المرء الذي يتأمل بالتدقيق في مسيرة هؤلاء الأنبياء، لا بد وأن يدرك كيف أن الوحي الإلهي قد أخذ شكل هرم متدرج الأطوار، بَنَى فيه كل نبي على ما سبق وبناه أقرانه من قبله. أما قمة الهرم فيقف عليها المسيح مُكَمِّل الوحي وخاتمته. ليس هذا صورة خيالية أو تخمينا بشريا، بل نجده مدوَّنا ضمن ما أوحى به الله نفسه، إذ قال عن مؤمنيه على لسان الرسول بولس: "مبنيين على أساس

الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية الذي فيه كل البناء مركبا معا ينمو هيكلا مقدسا في الرب" (الرسالة إلى أفسس2: 20و 21).

بيد أن هناك اختلافا جوهريا آخر ما بين دور المسيح كنبي وبين أدوار أنبياء الله. لقد تكلم الأنبياء كبشر مسوقين من عند الله وليس من عندياتهم، بينما تكلم المسيح كالله. كانوا دائما يصحبون رسالتهم بتعابير مثل "هكذا يقول الرب"، ولم تكن لديهم السلطة ولا القدرة على قول أي شيء بالنيابة عن الله إلا ما كان قد أوحى به الله إليهم. أما يسوع فقد كان يؤكد في رسالته على الدوام بأنه إنما يقول ما يقوله بسلطانه هو. عندما أشار لأقوال الأنبياء قال: "قيل لكم"، لكن عندما أشار إلى ما يقوله هو قال: "أما أنا فأقول" أو "الحق الحق أقول لكم". الأنبياء تحدثوا بالنيابة عن الله، أما المسيح فتحدث بالأصالة عن نفسه وانطلاقا من سلطانه الشخصي. والواقع أن ذلك ما أدهش معاصريه الذين لاحظوا أنه يختلف عن الأنبياء ورجال الدين، "لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة" (متى7: 29 ومرقس1: 22)، "لأنه بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه" (مرقس1: 27 ولوقا 4: 36). هذا وقد صرح يسوع أكثر من مرة بأن له سلطانًا يفوق ما هو لأي بشر (متى9: 6 ومرقس2: 10 ولوقا5: 24)، كما أن رسله الذين أوحى لهم بكتابة الإنجيل بواسطة الروح القدس، أعطاهم السلطان في مهماتهم النبوية (راجع متى10: 1 ومرقس6: 7 ولوقا9: 1). إذًا فهو في مهمته النبوية عبَّر عن سلطان لم يكن للأنبياء البشر، بالإضافة إلى الحق في إعطاء السلطان للأنبياء البشر.

بالرغم من أن يسوع أشار إلى نفسه كنبي لديه رسالة خاصة من الله الآب (راجع لوقا13: 33 ويوحنا8: 26 – 28، 12: 49و 50 ، 14: 10و 24)، إلا أن أعماله النبوية الخاصة لم تكن في حاجة إلى تأكيد شفوي على مركزه النبوي، فقد تنبأ عن المستقبل (متى24: 3 – 35، لوقا19: 41 – 44). ثم إن تعاليم المسيح كانت ذات طبيعة نبوية في صبغتها الغالبة. كان من الطبيعي اذًا أن يشير إليه الناس كنبي (متى21: 11 و 46، لوقا7: 16، 24: 19، يوحنا6: 14، 7: 40 و9: 17). وبالرغم من أن مواصفات النبوة الشائعة في حقبة العهد القديم انطبقت عليه من جهة علاقة تصريحاته بالماضي والحاضر

والمستقبل (راجع خروج7: 1، عدد12: 6 – 8، تثنية18: 18، إشعياء6: 8، إرميا1: 4 – 10، حزقيال3: 1 – 4 و17)، إلا أن المسيرة النبوية الجوهرية التي طغت على خدمته كانت تكمن في مقدرته الدائمة على تفسير الشريعة الإلهية وتطبيقها على الحياة اليومية المعاصرة. أما تفسيره للشريعة الإلهية فقد كان مدعوما دائما بحياته الطاهرة وسلوكه الذي لم تَشُبْهُ شائبة أخلاقية. في هذا لم تنطبق عليه مواصفات النبوة فحسب بل توَّجته ورفَّعته على كل الأنبياء؛ فالنبوة في مفهوم الوحي الإلهي ليست مجرد ادعاء بالحصول على وحي أو رسالة من الله، إنها دائما، وبحسب مواصفات الكتاب المقدس، مصحوبة بقوة معجزية خارقة تدل على أن الله هو مصدرها. ثم إنها أيضا مصحوبة بحياة نقية طاهرة يتحلَّى بها النبي، دلالة قاطعة على أن تكريسه للنبوة هو من الله. هذا بالطبع مغاير لادعاءات الكثيرين من الأنبياء المزيفين قبل وبعد المسيح، فهؤلاء اتسمت ادعاءاتهم بخلوِّها من القوة المعجزية الإلهية، ومع أنهم ادعوا المقدرة على القيام بالمعجزات فإن سجلاتهم تشهد بأن المعجزات التي ادعوا القيام بها كانت من نسج خيالهم ولم تكن من مصادر موثوق بها تدعم ادعاءاتهم، لأن المعجزات الحقيقية التي مصدرها قوة الله لا تحصل في الخفاء بل في العلن وإلا لما كان لحصولها أي معنى. بيد أن الحياة الأخلاقية للأنبياء الكذبة عبر التاريخ تتسم بفساد جنسي ورغبة قوية في التسلط على الآخرين، بالإضافة إلى الخوف الدائم من المعارضين والسعي للبطش بهم. أما الأنبياء الحقيقيون، والذين كان يسوع مثالهم الأسمى، فإن تقواهم الحقيقية لم تكن تخفى على أحد، ثم إنهم عبَّروا عن ثقة دائمة في الله وعن رغبة دائمة في إطاعة شريعته وأوامره الخاصة، حتى وإن قادهم ذلك إلى الموت. أما ثقتهم في الله فقد دلت عليها حياة التضحية التي مارسوها كل يوم، لأنه لم يكن يهمهم إرضاء البشر على الإطلاق بل إرضاء الله، في كل ما يقولونه ويعملونه ويفكرون به. أما المعجزات التي صحبت خدمتهم فلم يستعملوها لنيل ربح شخصي، بل على العكس نراهم يقشعرون ويهتزون عندما ينسب أحد لهم سلطة إلهية أو عندما يعتقد البعض بأن معجزاتهم تلك ناتجة عن مقدرة كامنة فيهم.

من هنا وجب علينا أن نتذكر أن يسوع لم يكن مجرد نبي عادي. إن تفوقه المعجزي والأخلاقي الخارق لم يكن الفارق الجوهري الوحيد، لأنه بعكس باقي أنبياء الوحي الإلهي

تمتع بمركزه وخدمته النبويتين من قبْل مجيئه إلى عالم البشر. إن "روح المسيح" هو الذي دل الأنبياء وقادهم وأوحى إليهم من قبل مجيئه (راجع رسالة بطرس الأولى1: 10 – 12).

كما أن مهمة المسيح النبوية امتدت إلى المستقبل، حتى بعد عودته إلى يمين العظمة في السماء لأنها كانت لها فعالية قبل وأثناء تجسده؛ فهو إذ صعد إلى السماء واصل خدمته النبوية عبر رسله الأطهار (راجع أعمال الرسل1: 1)، ثم إنه لا يزال يقوم بمهمته النبوية تلك عبر الروح القدس المعزي الذي أرسله إلى كنيسته لينعشها ويقويها ويطبق في حياتها متضمنات كلمته الطاهرة (يوحنا14: 26، 16: 12 – 14).

2- المسيح الكاهن

إن وظيفة المسيح الكهنوتية كانت بدورها أيضا ضمن الخواص المميزة للمسيا الذي تنبأت عنه أسفار العهد القديم، فقد قيل عنه: "أنت كاهن إلى الأبد" (مزمور110: 4). كما قالت النبوة إنه: "يبني هيكل الرب ويحمل الجلال ويجلس ويتسلط على كرسيه ويكون كاهنا على كرسيه" (نبوة زكريا 6: 13). أما الوصف الكامل لمركزه وخدمته الكهنوتية فقد ورد قبل مجيئه إلى عالم البشر بنحو سبعمائة سنة، وذلك على لسان النبي إشعياء في الفصل الثالث والخمسين من نبوته، الذي يعتبر من أجمل سجلات الوحي الإلهي.

إن وظيفة الكهنوت في الكتاب المقدس يمكن اعتبارها الوظيفة الموازية لوظيفة النبوة؛ فبينما يقوم النبي بنقل رسالة من الله إلى البشر، فإن الكاهن هو الشخص الذي يقوم بتمثيل البشر أمام الله، وذلك إما بتقديم ذبائحهم لله بالنيابة عنهم، وإما بنقل صلواتهم وطلباتهم إلى الله. إن ذلك بالطبع يعود لفقدان البشر المقدرة على الوقوف أمام الله بأنفسهم بسبب فسادهم وخطيتهم؛ لأجل ذلك رتب الله وجود تلك الجماعة من بني البشر الذين أهَّلهم وأعدهم للقيام بتلك المهمة الكهنوتية. فالشخص العادي لم يكن بوسعه الاقتراب من قدس الأقداس داخل الهيكل حيث تقدَّم الذبائح والصلوات الشفاعية الخاصة،

فالإنسان في حالته الساقطة مفصول أخلاقيا وروحيا عن الله وهو ذو طبيعة مغايرة لطبيعة الله الطاهرة، لذلك ليس باستطاعة الإنسان القدوم إلى محضر الله بنفسه. أما الكهنة الذين أقامهم الله عبر أجيال حقبة العهد القديم فقد أعطوا الحق في تمثيل بني البشر أمام المحضر الإلهي، فكان الكاهن يأخذ على نفسه مهمة إعادة تلك العلاقة الطبيعية – التي كانت بين الله وبني البشر – إلى ما كانت عليه قبل السقوط ولو بشكل جزئي ومؤقت؛ فالكاهن تقع عليه مسئولية الاعتراف العلني بخطية وعصيان من يمثلهم أمام الله، كما أنه يقوم بتقديم الذبائح الرمزية التي تعبِّر عن الرغبة في التوبة عن حالة التمرد تلك والتكفير عنها. إذن تقع على عاتق الكاهن مهمتين: الأولى تمثيل بني البشر أمام الله والثانية التشفع فيهم أمام الله. في العهد الجديد نرى أن كهنة العهد القديم لم تكن مهمتهم – رغم عظمتها وفعاليتها وجديتها – سوى مهمة رمزية، ترمز إلى الكاهن الأعظم الذي سعى هؤلاء الكهنة للتشبُّه به. إن المسيح هو المرموز إليه في الذبائح والصلوات التي قاموا بتقديمها. لعل أوضح ما ورد في الوحي الإلهي عن هذا الأمر هو المضمون الكلي للرسالة إلى العبرانيين، التي أكدت تفوُّق مركز المسيح الكهنوتي وألوهيته وتفوُّق مركزه النبوي على كافة الأنبياء؛ فبينما أشارت كتب العهد الجديد الأخرى إلى عمل المسيح الكهنوتي (راجع مرقس10: 45، يوحنا1: 29، رومية3: 24 و 25، كورنثوس الأولى5: 7، غلاطية1: 4، أفسس5: 2، رسالة بطرس الأولى2: 24 و 3: 18، رسالة يوحنا الأولى2: 2)، فإن دور الرسالة إلى العبرانيين الخاص هو شرح ذلك العمل وتوضيح أهميته، كما أنها لا تدع مجالا للشك في أحقِّية المسيح للقبه الكهنوتي المجيد. في الرسالة إلى العبرانيين دُعِي المسيح "رئيس كهنة الله" (3: 1)، و"رئيس كهنة عظيم" (4: 14)، و"كاهن إلى الأبد" (5: 6)، و"رئيس كهنة إلى الأبد" (6: 20)، و"رئيس كهنة..... قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات" (7: 26)، و"رئيس كهنة.... قد جلس في يمين عرش العظمة في السموات، خادما للأقداس والمسكن الحقيقي الذي نصبه الرب، لا إنسان" (8: 1و 2).

ومثلما تميَّز يسوع كنبي من بين جميع الأنبياء، تميَّز أيضا عن جميع الكهنة. هذا ما نراه في جانبي خدمته الكهنوتية بوضوح: أي في عمله الكفاري كفادي البشر والبديل

الحقيقي عنهم أمام الله، وفي عمل وساطته وخدمته الشفاعية كالممثل الأوحد لكنيسته المفتداة أمام الله.

بالنسبة إلى عمل المسيح الكفاري يضع الوحي الإلهي أمامنا حقيقة راسخة لا نزاع عليها، وهي أنه هو وحده الذي كان مؤهَّلا حقيقة لأن يكون فادي البشر، الذي باستطاعته معالجة معضلة سقوطهم وخطيتهم. ذبائح العهد القديم الكفارية ما كانت سوى رموز يتذكر بها بنو البشر خطيتهم ويتطلعون إلى قدوم ذلك المخلِّص الذي يُذبَح قانونيا بالنيابة عنهم. "لأن أولئك بدون قسم صاروا كهنة وأما هذا فبقسم من القائل له أقسم الرب ولن يندم أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. على قدر ذلك قد صار يسوع ضامنا لعهد أفضل وأولئك قد صاروا كهنة كثيرين من أجل منعهم بالموت عن البقاء، وأما هذا فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد له كهنوت لا يزول. فمن ثم يقدر أن يخلِّص أيضا إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم. لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شر ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات. الذي ليس له اضطرار كل يوم مثل رؤساء الكهنة أن يقدم ذبائح أولا عن خطايا نفسه ثم عن خطايا الشعب، لأنه فعل هذا مرة واحدة إذ قدم نفسه. فإن الناموس (أي الشريعة) يقيم أناسا بهم ضعف رؤساء كهنة، وأما كلمة القسم التي بعد الناموس فتُقيم ابنًا مكملا إلى الأبد" (الرسالة إلى العبرانيين7: 21 – 28). إذن ذبيحة المسيح تختلف عن ذبائح الآخرين من عدة جوانب:

أولا هي ذبيحة حقيقية؛ فالذبائح السابقة لم تكن لها سوى فائدة واحدة وهي أنها كانت ترمز إليه، "لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا.... تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتة أن تنزع الخطية" (عبرانيين10: 4 ، 11)، أما يسوع فكان إنسانا طاهرا، ولا يحل محل الإنسان سوى إنسان، "لذلك عند دخوله إلى العالم يقول ذبيحة وقربانا لم تُرد ولكن هيأت لي جسدا" (عبرانيين10: 5).

ثانيا إن ذبيحة المسيح هي ذات مدى غير محدود، فهو كالكاهن الإلهي غير المحدود قدَّم ذبيحة غير محدودة الفعالية، لأن المسيح "لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا، ولا ليقدم نفسه مرارًا كثيرة كما يدخل رئيس الكهنة إلى الأقداس كل سنة بدم آخر" (عبرانيين9: 24 – 25).

ثالثا إن ذبيحة المسيح هي أبدية الأثر، "فبهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة.... فبعدما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس إلى الأبد عن يمين الله... لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدَّسين" (عبرانيين10: 10و 12 و 14).

إلى جانب الذبيحة العظمى التي قدمها يسوع كفارة عن خطايا الكثيرين، فإن وظيفته الكهنوتية لها جانب آخر هو شفاعته بالنيابة عن مفديه. في هذا الصدد يقول الرسول يوحنا: "إن أخطأ أحد (أي من المؤمنين) فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار" (رسالة يوحنا الأولى2: 1). والشفيع هو الشخص الذي يُعِين المذنبين ويدافع عنهم، وهو محامي الدفاع أمام محكمة العدالة الإلهية. بالنسبة للمؤمنين، "من هو الذي يدين؟ المسيح هو الذي مات، بل بالحري قام أيضا، الذي هو أيضا عن يمين الله الذي أيضا يشفع فينا" (الرسالة إلى رومية8: 34). "هو حي في كل حين ليشفع فيهم" (عبرانيين7: 25). إنه "يظهر الآن أمام وجه الله" لأجل المؤمنين (عبرانيين9: 24). أما عظمة شفاعة المسيح فقاعدتها هي عظمة ذبيحته الكفارية. أما نتيجة تلك الشفاعة النهائية فهي في مجيئه الثاني، "هكذا المسيح أيضا بعدما قُدِّم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه" (عبرانيين9: 28).

3- المسيح الملك

إنه من الطبيعي جدا أن يكون للمسيح، وهو الإلهي الطبيعة، نصيبه الأزلي في التسلط على الكون، ذلك هو حقه الإلهي. لكن المسيح له مكانته الملكية الخاصة بصفته الوسيط، بين الله والناس، مخلص بني البشر الخطاة. إذن المكانة الملكية للمسيح، التي نحن بصددها الآن، تتعلق به كابن الله المتجسد، فهو في طبيعته البشرية إنسان أعطي سلطانًا خاصًّا لتكميل ملكوته الروحي في الكنيسة، وذلك بحفظها وحمايتها وقيادته لها نحو المجد الأبدي. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن المسيح أيضا، بصفته الفادي والوسيط، لديه سلطان خاص كملك على كل المخلوقات، بما في ذلك الأبالسة والبشر غير المؤمنين. هذا بالطبع يرجع إلى مكانته الملكية الفريدة في النهاية، عندما "يضع جميع أعدائه موطئا لقدميه" (مزمور110: 1)، وحين يكون قد أخضع الله له الكل حينئذ الابن نفسه أيضا سيخضع للذي أخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل (راجع رسالة كورنثوس الأولى15: 24 -28).

إن الجانب الأول من المكانة الملكية للمسيح إذن يرتبط بعلاقته بالمفديين؛ فهو ملكهم الروحي وله السلطان على خلاص وفداء النفس. تلك المسئولية كانت هي أيضا ضمن مواصفات المسيح المنتظر، التي كان قد سبق للمشورة الإلهية وقضت بها: "أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي" (مزمور2: 6). هذا هو الوعد المعطى للملك داود الذي كان رمزا للمسيح الملك الحقيقي. إن الوحي الإلهي يقول في هذا الصدد: "أقسم الرب لداود بالحق، لا يرجع عنه. من ثمرة بطنك أجعل على كرسيك" (مزمور132: 11). لأجل هذا السبب دُعي يسوع "ملك اليهود" و"ابن داود". ولعل هذا هو السبب الرئيسي من وراء ما تضمنه الوحي الإلهي لتلك القوائم الطويلة عن أنساب المسيح، بسبب ضرورة إثبات صلة قرابته بالملك داود. هذا وإن الوحي الإلهي كان قد سبق ووصف المسيح بأن "تكون الرياسة على كتفه... لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبِّتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد...." (نبوة إشعياء9: 6 – 7، راجع أيضا نبوة ميخا5: 2 وزكريا6: 13). أما بشارة الملاك لمريم عن المسيح

الموعود بقدومه فكانت: "هذا يكون عظيما وابن العلي يُدعَى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية" (لوقا1: 32 – 33). هذا ما أقرت به الجماهير الغفيرة عندما هتفت قائلة: "مبارك الملك الآتي باسم الرب" (لوقا19: 38)، أما يسوع فقد أشار إلى طبيعة مملكته تلك عندما دحض أقوال زعماء اليهود الذين اتهموه بالتآمر على نظام الحكم الروماني، فقال: "مملكتي ليست من هذا العالم..." (يوحنا18: 36). هذا الجانب الروحي للمكانة الملكية للمسيح هو في كونه مَلِكا على شعبه من المؤمنين. وهذه المكانة تتخذ إطارا روحيا على قلوب وحياة المؤمنين ولها بُعد روحي ألا وهو خلاص الخطاة. أما وسائط هذا الجانب من ملكه فهي روحية أيضا: فهو يحكم بواسطة كلمته وروحه، وهو يعبِّر عن مُلكه هذا بواسطة تجميع وحكم وحماية وتكميل كنيسته. إن مُلك المسيح هذا يسمَّى في العهد الجديد "ملكوت الله"، وقد دُعي في الإنجيل حسب كتابة متى "ملكوت السموات"، ولا يخفى على بال أحد أن متى وهو يكتب أصلا لمجموعات من اليهود أراد أن يتجنب استعمال التعبير "ملكوت الله" لأن الكثيرين من اليهود كانوا قد تعوَّدوا على تفضيل الإشارة إلى الأمور التي تخص الله بتعبير "السموات"، ذلك أنهم آثروا التقليل من استخدام اسم الله في أحاديثهم اليومية. ومهما تكن التسمية فإن أعضاء ذلك الملكوت الروحي، الذي يملك عليه المسيح، هم المواطنون أعضاء كنيسته الحقيقية المفدية التي اقتناها بدمه الطاهر (راجع أعمال الرسل20: 28).

لكن للتأثير الروحي لمملكة المسيح، الذي هو ملكوت النور، بُعدٌ أوسع من حياة المؤمنين. فحيثما وجدت كنيسته وتزايد تأثيرها على المجتمع يلاحظ نمو غير عادي للوفاء والمحبة والعدالة وروح الطهارة والقداسة والجد والتضحية والسلام. هذا ما يعكسه مثلا الزارع والشبكة اللذَيْن ضربهما المسيح نفسه (راجع متى13: 24 – 30و 47 – 50). فالمسيح عندما يملك على قلوب البشر ينقلهم من ملكوت الظلمة – حيث هم بالطبيعة مستعبدين للشر – إلى ملكوت النور حيث كل جمال وحسن وصلاح (راجع متى 12: 28، لوقا17: 21، رسالة كولوسي1: 13)، وإذ يرى الناس حياة هؤلاء – المتغيرة والمخلوقة من جديد بواسطة روح المسيح – يمجدون الله (متى5: 16). من هنا كان امتداد تأثير ملكوت المسيح.

لكن ملكوت المسيح المعطى له بعد التجسد امتد بشكل أوسع إثر قيامته، لذلك صرَّح لتلاميذه قائلا: "دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى28: 18). كان هذا جزءا لا يتجزأ من مقاصد الله الأزلية وعمله "الذي عمله في المسيح إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السموات، فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمَّى، ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضا، وأخضع كل شيء تحت قدميه وإياه جعل رأسا فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده ملء الذي يملأ الكل في الكل" (الرسالة إلى أفسس1: 20 – 23). ومع أنه قبل تجسده كان يتمتع بسلطان كهذا على كل شيء، إلا أنه بعد قيامته رسَّخ ملكه على الكل بشكل جديد، وهو في ذلك يتحكم في ظروف مسار التاريخ البشري بأسره لأجل تكميل عمله الكفاري ولأجل حماية كنيسته من كل خطر من شأنه عرقلة مسيرتها الروحية نحو الكمال الذي أراده لها.

رابعا: المسيح مكمِّل نبوات الوحي الإلهي

إن أسفار العهد القديم تحتوي على الكثير من الإشارات والنبوات التي وجهت المؤمنين وهيَّأتهم لمجيء المسيح إلى عالمهم البشري. هذا واضح جدا لدرجة أن الوحي الإلهي يبدو وكأنه قد رسم في تلك السجلات طريقا إلى استراحة نهائية بديعة. إن ظهور المسيَّا الآتي يتضح تدريجيا عبر صفحات العهد القديم كالغاية النهائية لكل شيء، حين يكشف الرب الإله عن نفسه في أبهى وأوضح الصور فيصبح "عمانوئيل"، أي أن الله حل بين البشر.

لقد كان من الضروري أن يتخذ الأمر ذلك الشكل التدريجي في تاريخ البشر، فلو أن الوحي الإلهي كشف عن عملية التجسد الإلهي بشكل مفاجئ لما كان في وسع الناس فَهْم الأمر على الإطلاق. كان لا بد لتلك الخطوات التمهيدية أن تأخذ مجراها؛ لأن الأمر لم يقتصر على مجرد تحضير الظروف التاريخية والإجتماعية والروحية الملائمة لمجيء المسيح، بل إن البشر أنفسهم كانوا بحاجة إلى تهيئة لكي يفهموا الظروف والأحداث، ومن ثم معنى التجسد الإلهي والقصد منه. من هنا كانت الطبيعة التدريجية لنبوات العهد

القديم المختصة بالمسيح. أما تحقيق السيد المسيح لمواصفات ومتطلبات تلك النبوات فهو مذهل في دقَّته وتفاصيله؛ لأنه يعرِّف المرء بأن المسيح هو وحده الذي يعطي مسار الوحي الإلهي (في العهد القديم) مغزاه وقصده وكماله.

ولعل المدهش في هذا الأمر هو كون نبوات العهد القديم، الخاصة بقدوم المخلِّص، كانت قد بدأت مع بداية سجلات الوحي الإلهي نفسها، وسارت جنبا إلى جنب مع تطورات الأحداث. نرى مثلا أنه منذ البداية وفي مطلع التاريخ البشري، عندما حدث السقوط لدى عصيان أمر الله والأكل من الثمار المحرمة للشجرة التي في وسط الجنة، وعَدَ الرب آدم وحواء بأنه من نسل حواء سيأتي من يسحق رأس الحية التي دبرت المكيدة (راجع تكوين3: 15). إن لهذا علاقة خاصة بميلاد المسيح العذراوي من امرأة والذي تعرضنا له سابقا. من هنا طبَّق الوحي الإلهي ذلك الوعد على أسلوب مجيء المسيح بالقول: "... لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودا من امرأة..." (الرسالة إلى غلاطية4: 4). كان لا بد إذن للمسيح، نسل المرأة، أن يتصارع وجها لوجه مع الشيطان مدبر السقوط؛ لأن المسيح هو المخلِّص من هذا السقوط. لقد واجه المسيح إبليس في مرحلة تجاربه التحضيرية قبل شروعه في خدمته العلنية (راجع لوقا4: 1 – 14)، هناك دحره وأثبت تفوُّقه عليه. كما أنه صارع إبليس عندما أخرج أجناده من سكناهم في عشرات البشر الذين كانوا قد سيطروا عليهم واستعبدوهم؛ لأجل ذلك دُعي محرِّرا (راجع مرقس5: 1 – 20 ولوقا4: 20 – 22).

لقد سبق مجيء المسيح إلى عالمنا كثيرون ادَّعى كل منهم بأنه "المخلص المنتظر"، كما جاء بعده كثيرون ادعوا نفس الادعاء، لكن سرعان ما سقطت ادعاءاتهم وذهبت أدراج الرياح بمجرد أن كشف الواقع كيف أن المسيح وحده هو الذي انطبقت عليه أوصاف وتوقعات نبوات الوحي الإلهي. لعل هذا هو السبب الرئيسي من وراء وجود تلك التفاصيل الدقيقة في النبوات عن المخلص المنشود. البعض يتساءلون عن أهمية تلك اللوائح الطويلة لسلسلة أنساب المسيح التي أوردها الإنجيل، لكن تلك الأهمية هي كامنة فعلا في ضرورة التيقُّن المطلق من صحة هويَّته؛ فقد كان مفروضا أن يأتي من نسل

إبراهيم عبر ابنه إسحق وحفيده يعقوب بالذات، من سبط يهوذا ومن نسل داود بالذات أيضا. كما كان من المفترض أن يولد في بيت لحم وأن يقضي بعضا من طفولته في مصر وتكون نشأته في الجليل. كل هذه كانت أدلة وبراهين تاريخية توفرت فيه.

لكن نبوات الوحي الإلهي تطرَّقت لمواصفات أخَر يجب توفرها في المسيَّا المنتظر، ولها علاقة حيوية ومباشرة بمهمته الخلاصية كالإنسان المعصوم عن الخطأ، المؤهَّل لأخذ مكان البشر، وكالله المتجسِّد الذي بوسعه إكمال المهمة المرسومة. من جهة طبيعته البشرية كان لا بد وأن يتمتع بعاطفة قوية ومحبة قلبية لبني البشر، تعبيرا عن استعداده للتألم والموت عنهم، كما كان من المفروض عليه أن يبرز كإنسان فوق العادة وفريد من نوعه (راجع إشعياء11: 2 – 5و 42: 2 – 6). أما من جهة طبيعته الإلهية فقد كان من الضروري إدراك وجوده المسبق وكونه قد "أتى" إلى عالم البشر من عالم آخر (راجع إشعياء63: 1). كان من المفروض أيضا أن تنطبق عليه أوصاف لا تنطبق إلا على الله، فيُدعَى "عمانوئيل" (أي أن الله حل مع البشر)، و"يسوع" (أي المخلِّص) و"الإله القدير" و"الأب الأبدي" و"رئيس السلام" (إشعياء7: 14 و 9: 6).

كان يجب أن يكون نور العالم الذي يقضي على الظلمة (قارن إشعياء9: 2 مع يوحنا8: 12)، فلو أن بني البشر لم يكونوا على وعي بالظلمة الروحية حولهم، لما كان لمجيء النور الروحي من معنى. الواقع أن أحداث وسجلات العهد القديم لم تقتصر إشاراتها، في التمهيد لمجيء المسيح، على النبوات الواضحة والمباشرة، لقد كان كل شيء يشير بصورة أو بأخرى لمجيء المخلِّص ويمهِّد له. وقد أجمع علماء الكتاب المقدس من المؤمنين على أن معاملات الله مع شعبه في العهد القديم أبرزت بوضوح الإفلاس الروحي للبشر وفشلهم الذريع في إرضاء الله بواسطة مجهوداتهم الدينية الخاصة، مما حتم أن يكون الحل للمشكلة من خارج نطاق قدراتهم الشخصية. كان من الواضح إذن أنه إذا أمكن الوصول إلى حل لمعضلة فشل البشر في إرضاء عدالة وقداسة الله، فإن ذلك لا بد أن يأتي عبر مبادرة إلهية خاصة. لكن مع كل ذلك كان على البشر أن يدركوا حاجتهم إلى تقديم ذبائح رمزية للتكفير عن خطاياهم، كما كانوا في حاجة إلى

إدراك مدى الهوة الروحية التي تفصلهم عن قداسة الله، مما تطلب وجود الكهنة الوسطاء بينهم وبين الله. فلو أن المسيح جاء فجأة لتقديم نفسه كالكاهن والوسيط والذبيحة الحقيقية التي تحطم الحاجز بين الله والناس لما فهم بنو البشر مهمته على الإطلاق. لقد كان عليهم إدراك وجود ذلك الحاجز الروحي الذي أقامته الخطية بينهم وبين الله، ومن ثم حاجتهم إلى إزالة ذلك الحاجز. عندئذ فقط يأتي "ملء الزمان" أي يصبح كل شيء جاهزا ومعدا لعملية التجسد والخلاص.

إن التاريخ يشهد بشكل قاطع لواقعة الصلب، كما أن النبوات كانت قد سبقت وتحدثت عنها بالتفصيل (راجع نبوة اشعياء53)، لكن الكتاب المقدس بعهديه يطرح الأمر على شكل ضرورة مُلحَّة ومحتومة لاسترجاع تلك العلاقة الروحية المفقودة بين الله الخالق وبني البشر المخلوقين. فمجيء الأنبياء ونزول الشرائع الإلهية وكافة متضمنات الوحي الإلهي لهم، جميعها لها أدوارها الخاصة في الإعداد لمجيء المسيح. إضافة إلى ذلك فإننا نجد أن مسار التاريخ البشري حول محيط شعب الله في العهد القديم، ابتداء من عبوديتهم في مصر وخروجهم منها إلى تأسيس مملكتهم تحت قيادة الملك داود وابنه سليمان وتطورها التدريجي وصولا بتحطمها وسبي الأمة بأسرها إلى بلدان نائية، كل هذا إنما أشار باتزان وانسجام وترابط كامل إلى ضرورة تدخل الله المباشر وإنجازه لعملية الخلاص.

لكن دور النبوات التي قدمت إشارات ومواصفات مباشرة عن المخلّص الآتي يبقى جوهريا في العملية كلها. لقد كان من الضروري أن يُعطى البشر الأدلة القاطعة والعلامات الفارقة التي تمكِّنهم من التمييز ما بين كل من ادَّعى كذبا بأنه المسَّيا المنتظر وما بين صدق المسَّيا الحقيقي. فلو أن الأمر ترك لهم للتخمين؛ لفقدت سجلات الوحي الإلهي مقصدها وحيويتها وانسجامها، ولكان الباب مفتوحا على مصراعيه أمام كل مدَّع بالنبوة أن يطبق على نفسه مواعيد الله بقدوم المخلِّص.

إن الأنبياء أنفسهم، الذين أوحى لهم الله بتفاصيل قدوم المخلص الدقيقة، اعتبروا أنفسهم أدوات طيِّعة في التمهيد لذلك الحدث الذي كان سيقع في "الأيام الأخيرة" أو في "ملء الزمان"؛ فعبر صفحات الكتاب المقدس لم يبدر على لسان أحدهم، ولا حتى تلميح واحد، على أنه هو أفضل الأنبياء أو خاتمتهم. كل واحد منهم أدَّى دوره في التمهيد لمجيء المسيح بدون تردد أو رغبة في تحسين مركزه الشخصي أو تجميع أتباع له. عندما تحدَّث موسى عن مجيء المسيح قال للشعب: "له تسمعون" (تثنية18: 15) وعندما تحدث داود دعاه "ربِّي" (مزمور110: 1) حتى يوحنا المعمدان قال عن المسيح: "الذي يأتي بعدي قد صار قدامي، الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه" (يوحنا1: 27)، "هذا هو ابن الله" (يوحنا1: 34)، "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا1: 29). كثيرون غيرهم من الأنبياء كان السيد المسيح نفسه قد أشار لأقوالهم مصرِّحا: "أنه مكتوب في الأنبياء ويكون الجميع متعلمين من الله. فكل من سمع من الآب وتعلَّم يُقبل إليَّ. ليس أن أحدا رأى الآب إلاَّ الذي من الله. هذا قد رأى الآب. الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية. أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم" (يوحنا6: 45 – 51). إذن فالمسيح نفسه رأى أن دور كل الأنبياء وكل متضمنات الوحي الإلهي كانت لأجل التحضير لمجيئه. عندما تذكرت المرأة السامرية أقوال الأنبياء قالت للمسيح: "أنا أعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء"، فكان رد يسوع عليها: "أنا الذي أكلمك هو" (يوحنا4: 25 – 26). وعندما قال له اليهود: "ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات. والأنبياء ماتوا. من تجعل نفسك؟" لم يتردد يسوع في أن يكشف تفوقه وعظم مكانته فوق كل الأنبياء فأجابهم: "أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح... قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يوحنا8: 53 ، 56، 58).

خلاصة القول إذن هي أن المسيح لم يحقق نبوات العهد القديم فحسب، بل إنه كان محور وقصد كل متضمنات الوحي الإلهي.